أعمدة هرقل

الاستاذ عبد العزيز الرفاعي

اعجابى بالاستاذ عبد الحق فاضل ، فى ادبه وعلمه وسعة اطلاعه ودقة بحثه ، اعجاب قديم ، منذ قرات له « ثورة الخيام » ، ذلك الكتاب القيم بل الرائع ..

وقد تجدد هذا الاعجاب ، حينما اخذت اطلع على مقالاته الماتعة فى مجلة « اللسان العربى » ، وخاصة تخريجاته اللغوية الفاحصة !

وآخر ما قرات له فيها ، مقاله عن « اطلنطة » الذى ضمه عنوان شامل هو « تاريخهم من لغتهم » فى « المجلد العاشر ، الجزء الاول ص 151 » .

وهو لا يخرج فى امتاعه ، عما عودنا الاستاذ الكبير ..

وقد وقفت ، متأملا ، لدى ما اورده فيه الاستاذ عن أعمدة هرقل ..

فقد عرج على ذكر « ايراقال » .. الذى قال عنه ، انه ورد اسمه فى المصادر الانكليزية (Irragal) وانه عند البابليين اله مياه العالم السفلى التى تحبسها دعائم او اعمدة .. و « كأنهم كانوا يتصورونها مثل دعائم السدود والخزانات تقام لحبس مياه السيول والانهار ، وكان اقدام هذا الاله السفلى الشرير ، على قلع تلك الاعمدة ، هو تفسير زيادة مياه الانهار عندهم ، وارتفاعها عن المستوى المعقول احيانا ، ايام الفيضان كل عام .. »

ثم يقول الاستاذ الفاضل : « ويبدو ان ولعى بمقارنة الالفاظ وتمحيصى معانيها ، واستعراض متشابهاتها قد ابتلانى بحساسية خاصة لا شعورية فى بعض الالفاظ ، فما سمعت عينى كلمة (ايراقال) ، اعنى ماوقعت عليها عينى ، وتحسستها أذنى ، حتى تقفز الى ذهنى اسم هرقل (Herakles) بالاغريقية و Hercules باللاتينية) . لكنى فى العادة سرعان ما انبذ الاهتمام بالتشابه ، اذا لم أجد صلة معنوية تربط بين اللفظين . أما الشبه بين (ايراقال) و (هرقل) فلم استطع ان انبذه بهذه السهولة ، لان شيئا آخر قفز معه الى ذهنى هو « اعمدة هرقل Pillars of Hercules بالانكليزية و

Hercules columnae باللاتينية » .

« واذا لحظنا ان اقدم اسماء هرقل ، على اختلاف صورها فى اللغات الاوربية هو الاسم الاغريقى (هراكلس Herakles) الشبيه جدا باسم « ايراقال Irragal البابلى ، لم يسعنا الا ان نتساءل جادين : هل اعمدة هرقل هى نفسها اعمدة ايراقال ، او هى مقتبسة منها ؟ هل هى اعمدة مائية ؟

« ان اعمدة هرقل ليس لها تعريف واضح محدد ، وانما يطلقها بعضهم على جزيرتين او اكثر فى المحيط الاطلسى بالقرب من جبل طارق · ويطلقها بعضهم على جزيرتين او اكثر فى البحر المتوسط بالقرب من جبل طارق ايضا · ولا يدرى احد سبب هذه التسمية ·

ويستمر الاستاذ الفاضل قائلا :

« ثم قفزت الى خاطرى مسألة اخرى · كنت قرات فى كتاب عربى ان هذا المضيق كان يقوم عليه جسر بأعمدة يعبر عليه الناس والدواب ! »

ويشبع الاستاذ البحث ، ويطيل فيه القول بأناة ، مرتبا افكاره وخواطره الى ان ينتهى الى القول ، بان اسم (هيراكلس) انما اطلقه اليونان على إلّه = الدعائم المائية اولا ، ثم على البطل الانسان ، الاغريقى المشهور ··

واذن فأعمدة هرقل التى بمدخل جبل طارق ، انما يراد بها الاعمدة المائية التى تحجز البحر المحيط ، او التى تطلته ·· ويستبعد أن يكون هناك جسر قد قام فى يوم من الايام ، على مضيق جبل طارق يربط ما بين القارتين او العدوتين ··

وهو يقول فى صراحة وجزم : « واما قول القائلين ان جسرا كان يقوم على مضيق جبل طارق فوهم صراح · لان العالم المتحضر لم يستطع حتى اليوم ان يقيم جسرا على مثل هذا المضيق البحرى العريض » ··

ويقول : « لكن هذا الوهم قد سببه ، فيما يظهر ان بعضهم صار يسمى المضيق نفسه « اعمدة هرقل » ، فأول ما يخطر على بال سامع هذه التسمية هى دعائم الجسر ، فخالوا أن جسرا كان وزال ، وحين يكون جسر ، يعبر الناس والدواب ايضا » ··

وقد استوقف نظرى فى هذا البحث الماتع ، كل ما يتعلق بهذا الجسر ، الذى يربط بين جبل طارق ، وبين عدوة افريقيا ·· فلقد كنت تعرضت لذكر شىء عنه ، فى رسالة صغيرة جدا من وريقات كنت اصدرتها عن « جبل طارق والعرب » ··

فبالرغم من اننى من المشرق العربى البعيد ، من اعماق جزيرة العرب ، استحوذ هذا الجبل على اهتمامى ، لارتباطه بامجاد العروبة ·· وفتوحات الاسلام ، ومن واجب كل عربى ، ان تكون بلاد العرب كلها هواه ·· وكلها وطنه ··

وقد اوردت فى ذلك الكتيب الصغير (صدر فى طبعات ثلاث اخيرتها منقحة شيئا ما) ما رواه شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابى طالب الانصارى الدمشقى المعروف بشيخ الربوة (ت 727 هـ) فى كتابه « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » ص 136 وما بعدها : ان المؤرخين زعموا ان الاسكندر حفر الزقاق ، واجراه من المحيط ليفرق به اهل الاندلس والبربر ، واهل بر العدوة والاسبان ، ليمنعهم من غارات بعضهم على بعض ، وزعم آخرون انه لم يحفره ولكنه اراد ان يعمر عليه جسرا من قناطر ففعل ذلك ، ثم ان البحر طحا وزاد ، وغطاها ·· وانه الى الآن ينظر الراكب فيه الى القناطر تحت الارض عند سكون الريح ، وهدوء الموج ، ونقص مده وجزره »

ثم اوردت ان المؤلف ، وصف عرض الزقاق ، وقال ان الجسر الذى بناه الاسكندر ، فى اضيق مكان امكنة البناء ، وهو اربعة آلاف خطوة وذلك طول ميل واحد ، ثم وصف القناطر والجسور ، وان الاسكندر استعان فى بنائها بفكرة المراكب المتصلة المقيدة بسلاسل ·· (ص 20)

واضيف هنا الى ما ذكرته هناك ؛ التفاصيل التى ذكرها صاحب « نخبة الدهر » ، فقد ذكر انه

« تسم المضيق الى سبعين قنطرة ، باثنين وسبعين برجا ، قاعدة ما بين كل حنية منها مع برج ، خمسون ذراعا ، وابتداء العمل من الساحلين ، حتى ختم بالوسط ، قال اهل الهندسة : وكيفية بناء ذلك ، انه بنى فى الطرفين ما امكنه ارتكاكا ردما ، حتى وصل الى الماء العميق المتحرك بالموج ، فاتخذ عليه مراكب كالجسر ، وأوصل بعضهـا ببعـض بالحبال حتـى اتصلت ، ولزمت بعضها ببعض بالحبال والايثاق ، ثم أوصل كعاب سلاسل الحديد المحكمة ، كعبا الى كعب وعلقها فى المراكب شيئا بعد شىء ، حـتى اوصلها سلسلة واحدة من البر الى البحر ، ثم أوثق اطرافها من الناحيتين ، ثم انه مـد ثلاث سلاسل اخرى كذلك ، وجعل بين كل سلسلتين مراكب منظومة جسرا محكما ، وجعل بين هذين الجسرتين فضاء فى البحر نحو اربعين ذراعا ، ثم فرش فى الفضاء على وجه البحر طوال الخشب المحكم المتداخل بعضها ببعض بالدسر والقلفاط ، حتى صار الفرش كمثل الحصير المفروش على وجه الماء وهو ملء ذلك الفضاء بين تلك السلاسل ، وجعل مثل الواحـد المفروش مفارش بعدد الابرجة التى بين الحنايا ، فلما كمل اقام على كل مفرش منها حائطا من الخشب المحكم ، والتصفيح بالحديد نحو قامة ، ثم بنى فى وجه كل مفرش مدماكا بالحجارة والكلس ، ثم رفع الحوائط بالخشب كذلك ، ثم بنى مدماكا فوق مدماك حتى وصل المفرش الى ارض البحر وهو برج من حجارة محكم البناء ، له غلاف كالصندوق من الخشب المدسر المحكم التصفيح بالقلفاط ، فلما استقر كل مفرش وصار برجا قائما فى الماء ممسوكا بين السلاسل ، بنى عليه مداميك ارتفع بها عن ضرب الموج ، وعن زيادة المد ، ثم ترك ذلك سنة ، على تلك الحالة ، ثم تفقده باصلاح ، ثم بنيت اوائل القناطر على رؤوس تلك الابرجة ثم جعلت لها القوالب وعقدت عليها فكملت ، ثم تركت سنة ثانية ، ثم ركب بالعمارة جسرا طوله اربعة آلاف ذراع وزيادة مائتى ذراع ، واستمر حتى طغى البحر فركب الجسر ، وفاض عليه ، وعم ما حوله حـتى وصل الى ما وصل اليه من البلاد وتحير بعض اهل البحر المسافرين فيه ، انهم بعض الاحيان ، يتوقف الريح ، ويسكن البحر ، فيرون فى قرار البحر اسوارا، وعمارات قائمة فيه ، تحت الماء » ..

ولم يكتف صاحب نخبة الدهر ، بما وصـف مفصلا ، فاضاف الى ذلك رسمين توضيحيين ، لتبيين وصفه .

وبالرغم من انه لا يصح الجزم بمثل هـذه الروايات ، الا انها تفتح الباب للبحث ، وقد تفتحه ايضا للتنقيب عن حقيقة تلك السلاسـل والارصفة والقناطر .. وربما عنى بالامر بعض علماء الآثار ..

واذا اخذنا فى الحسبان ان الانسان المتحضر القديم ، أتى بالاعاجيب خامة فى عالم البناء والعمارة.. وترك فى ذلك آثارا لاتزال ماثلة كالاهرام ، لا ندهش حينما نجـده قد اضطلع باعمـال جبارة من هـذا القبيل ..

ويقرب الامر الى الاذهان ، ان الجسر الذى يصفه صاحب « نخبة الدهر » لم يقم على مدخـل الزقاق ، على عرضه الحالى ، بل قام عند اضيق نقاطه، وان عوامل الزمن، وتلاطم الموج، قد زادتمن اتساع المضيق .. ولعلماء البيولوجيا كـلام فى ذلـك طويل ..

وللمقرى (ت 1041 هـ) فى نفح الطيب ج 1 ص 132 ، كلام عن احتفار الاسكندر للزقاق ، وصل به ما بين البحرين ، البحر المحيط ، وبحر الروم وانه بنى رصيفين ، على كل جهة رصيـف ، وان عملية الحفر ، وطغيان ماء المحيط سبب هلاك خلق كثير على الشاطئين .. وان الماء طفا على الرصيفين احدى عشرة قامة « فاما الرصيف الذى يلى بلاد الاندلس ، فانه يظهر فى بعض الاوقات ، اذا نقص الماء ظهورا بينا مستقيما على خـط واحد ، واهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، واما الرصيف الذى من جهة العدوة ، فان الماء حمله فى صدره ، واحتفر ما خلفه من الارض اثنى عشر ميلا ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز ، وسبتة وطنجة ، وعلى طرفه من الناحية الاخرى جبل طارق بن زيـاد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء .. »

وما نقله المقرى ، يدل على ان الاسكندر وصل البحرين ، ولم يصل البرين ، عكس ما ذكره صاحب « نخبة الدهر » فيما اوردت من أقواله ..

وهنا اود ان اذكر ان الدكتور عبد الهادى التازى ، وهو من اهل هذه الشعاب ، قال ضمن تعليقاته فى كتاب (المن بالامامة) الذى اخرجه ، وهو لابن صاحب الصلاة ، ان رصيف الاسكندر الذى يمتد من طنجة الى ساحل الاندلس قد تهدم قبل الفتح الاسلامى بمائتى سنة ..

ومعنى هذا انه لم يداخل الدكتور التازى شك فى وجود رصيف الاسكندر .. الا ان السؤال الذى يرد هنا ، هو هل كان الرصيف ممتدا بين الساحلين ليصل جسرا بينهما ، أم انه على كل شاطىء رصيف ، وبينهما بحر ؟

لعل الدكتور التازى — وهو غزير العلم والفضل — ان يشارك برايه فى هذا البحث ؟

اما ياقوت الحموى (ت 626) فيحدثنا فى مادة (بحار — بحر المغرب) فيقول : « .. وقرات فى غير كتاب من اخبار مصر والمغرب ، انه ملك بعد هلاك الفراعنة ، ملوك من بنى دلوكة، منهم دركون بن ملوطس وزمطرة ، وكانا من ذوى الراى والكيد والسحر والقوة ، فاراد الروم مغالبتهم على ارضهم ، انتزاع الملك منهم ، فاحتالا ان فتقا البحر المحيط من المغرب ، وهو بحر الظلمات ، فغلب على كثير من البلدان العامرة .. والممالك العظيمة ، وامتد الى الشام ، وبلاد الروم ، وصار حاجزا بين بلاد الروم وبلاد مصر .. »

على ان هذه النصوص لا ترقى مرقى اليقين ، بل ان الشك فيها يجب ان يكون وافرا .. ولكنها — كما اسلفت — تلقى ومضات من الضوء على طريق الباحثين والمنقبين ..

وهكذا نرى ان بعض النصوص ، تدل على ان الشاطئين كانا رتقا ، وان ايدى البشر فصلتهما .. ومعنى ذلك ، ان صحت الرواية ، ان المسافة المفتوقة كانت ضيقة جدا ، وانها اتسعت فيما بعد بعوامل من الموج ، وتمادى الزمن ..

اما النص الذى يغلب على ظنى ان الاستاذ الفاضل قد وقف عليه ، الخاص بان هناك جسرا باعمدة يعبر عليه الناس والدواب .. فأحسبه النص الذى ورد لدى المسعودى (ت 346) فى « مروج الذهب » (ص 348 من الطبعة الثالثة 1377 هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ، ولعله اسبق النصوص واقدمها ، وقد اورده فى سياق قصته العالم القبطى المعمر ، الذى احضر لابن طولون ، ووجهت اليه عدة اسئلة ، كان يتولى الاجابة ، عليها . وهذا هو النص ، حيث ورد به ذكر الدواب :

« .. وقد كان بين الاندلس ، وبين الموضع الذى يسمى الخضراء ، وهو قريب من فاس المغرب وطنجة ، قنطرة مبنية بالحجارة والطوب، تمر عليها الابل والدواب من بلاد الاندلس الى المغرب ، وماء البحر تحت تلك القنطرة ، متقطع = خلجانات صغارا، تجرى تحتها تناطرها ، وما عقد من الطاقات تحتها على صخور صم ، وقد عقد من كل حجر الى حجر طاق ، وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من اوقيانوس ، وهو بحر المحيط الاكبر ، فلم يزل البحر يزيد ماؤه ، ويعلو ارضا فارضا فى طول ممر السنين ، يرى زيادته اهل كل زمان ، وتبينه اهل كل عصر ، ويقفون عليه ، حتى علا الماء الطريق الذى بين العريش وبين قبرص ، وعلا القنطرة التى كانت بين الاندلس وبر طنجة وما وصفت فبين ظاهر عندا اهل الاندلس ، واهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة ، وربما بدا الموضع لاهل المراكب ، تحت الماء ، فيقولون : هذه القنطرة ، وكان طولها نحو اثنى عشر ميلا فى عرض واسع ، وسمو بين ، فلما مضت لديقلطيانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع .. » الخ

هذا ما وقفت عليه فى هذا الموضوع ، احببت ان اذكره للاستاذ الجليل « عبد الحق فاضل » ، عسى ان يفتح طريقا لاحقا للبحث ، أو يقيم جسرا متينا الى الحقيقة ، وفوق كل ذى علم عليم .